الشهيد رئيسي والعراق.. بين زيارتين!

أحمد محمد
كاتب

في التاسع من شهر شباط / فبراير من عام ٢٠٢١، أي قبل أكثر من ثلاثة أعوام زار الشهيد السيد إبراهيم رئيسي العراق، وكان حينها يشغل منصب رئيس السلطة القضائية في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وبشهادة وتقييم العديد من الساسة العراقيين وأصحاب الرأي، كانت تلك الزيارة مثمرة ومهمة للغاية، ليس لأنه كان متوقعًا ومنتظرًا أن يصبح رئيسي رئيسا للبلاد على ضوء الانتخابات الرئاسية المرتقبة في حينها بعد شهور قلائل فحسب، بل لأنه جاء وهو يحمل رؤية واضحة وعميقة لمعالجة حزمة من الإشكاليات والملفات الشائكة، سواء على صعيد العلاقات الثنائية بين بغداد وطهران، أو في إطار الوضع الإقليمي العام، والدور المفترض للبلدين في حلحلة أزمات المنطقة، وتقريب المواقف والتوجّهات بين الفرقاء.

صحيح أن الراحل السيد رئيسي زار بغداد قبل أكثر من ثلاثة أعوام بناء على دعوة رسمية تلقاها من نظيره العراقي في حينه، رئيس مجلس القضاء الأعلى القاضي فائق زيدان، إلا أن تلك الزيارة التي استغرقت بضعة أيام، شهدت عشرات اللقاءات السياسية والشعبية، الرسمية وغير الرسمية، مع مختلف الشخصيات والنخب والفئات السياسية والدينية والاجتماعية العراقية، وتجاوزت الطابع البروتوكولي التقليدي، لتتّخذ طابعًا وديًا عفويًا في جانب كبير منه، ولترسم بالتالي انطباعات إيجابية لدى العراقيين عن الرئيس رئيسي، لا سيما كلماته المعبرة عن العلاقات والروابط الصميمية بين الشعبين العراقي والإيراني، التي قالها حينما زار موقع اغتيال الشهيدين القائدين الحاج قاسم سليماني والحاج أبو مهدي المهندس قرب مطار بغداد الدولي بعد وصوله إلى العراق مباشرة.

وبعدما تولى رئاسة الجمهورية الإسلامية الإيرانية عبر فوزه في الانتخابات التي جرت بعد شهور قلائل من زيارته للعراق، كان السيد رئيسي حريصًا دومًا على ترسيخ العلاقات بين البلدين الجارين على كلّ الصعد والمستويات، ولم يدّخر جهدًا في تقديم كلّ ما من شأنه معالجة المشاكل والأزمات الأمنية والسياسية والاقتصادية التي يعانيها العراق، والعمل على تفكيك القضايا العالقة بين بغداد وطهران. فضلًا عن تعزيز التعاون والتنسيق ضمن الفضاء الإقليمي العام لنزع فتيل التوترات وتطويق الأزمات فيه.

وبعد ثلاثة أعوام، كان من المقرر أن يتكرّر مشهد الزيارة التاريخية لرئيسي إلى العراق، وبالفعل بدأت التحضيرات والاستعدادات في طهران وبغداد، وكذلك في اربيل، منذ حوالي شهرين لإنجاح الزيارة التي كان مفترضًا أن تتم نهاية شهر أيار / مايو الجاري أو بداية شهر حزيران / يونيو المقبل.

فالوفود العراقية التي زارت طهران، والوفود الإيرانية التي زارت بغداد، ركزت على وضع وصياغة كلّ الترتيبات السياسية والإدارية للزيارة، من حيث تهيئة مسودات مذكرات التفاهم والاتفاقيات التي كان من المرتقب ابرامها، وفقرات برنامج الزيارة في بغداد والنجف الاشرف وكربلاء المقدسة، إضافة إلى اربيل.

ولعل زيارة رئيس إقليم كردستان العراق نيجرفان البارزاني الأخيرة لطهران مطلع الشهر الجاري، تمحورت في جانب منها حول أهمية وضرورة زيارة الرئيس رئيسي للعراق عمومًا ولإقليم كردستان على وجه الخصوص، لا سيما مع رغبة وتوجه الجانبين في تصحيح مسار العلاقات المتوترة نوعًا ما منذ عدة أعوام بينهما. بيد أن فاجعة سقوط مروحية السيد رئيسي ومرافقيه في محافظة اذربايجان الشرقية قبل أيام قليلة، والتي تسببت باستشهادهم جميعًا، قلبت الأمور رأسًا على عقب، وألغت كلّ ما تم التحضير والاعداد له.

رحيل السيد رئيسي، لا يعني بأي حال من الأحوال توقف المسير، فما أسس له الشهيد رئيسي وما سار عليه، وما كان مخطّطا أن يقوم به خلال زيارته للعراق، سيستمر ويتواصل، أولًا لأن هناك ثوابت ومحدّدات وسياسات وتوجهات، لا ترتبط أساسًا بأشخاص معينين، بقدر ما ترتبط بإرادات ونوايا وأهداف وغايات. ثانيًا، لأن إيران دولة مؤسسات، قد تتأثر بغياب ورحيل شخصيات بارزة وفاعلة ومؤثرة مثل الرئيس رئيسي والوزير حسين امير عبداللهيان وغيرهما، لكنّها لا تنهار ولا تسقط ولا تتلاشى، بل تواصل سيرها ومسيرها بواسطة الكثير من الكفوئين والمخلصين والحريصين والمضحين. ثالثًا، لأن تعزيز وتطوير وتمتين العلاقات مع العراق حكومة وشعبًا، يحظى باهتمام القيادة الإيرانية العليا، ويعد أولوية أساسية بالنسبة لها نظرًا للعديد من القواسم المشتركة، والمصالح المتبادلة، والتحديات المتشابهة. وإذا كان القدر لم يمهل الشهيد رئيسي للمجيء إلى العراق، فإن هناك من سيأتي ليكمل ما بدأه وعمل عليه هو وغيره من القيادات والشخصيات الإيرانية على امتداد عقدين من الزمن.

رحيل السيد رئيسي، لايعني بأي حال من الأحوال توقف المسير، فما أسس له الشهيد رئيسي وما سار عليه، وما كان مخطّطا أن يقوم به خلال زيارته للعراق، سيستمر ويتواصل

السيد رئيسي ورأسماله الرمزي

حسين إبراهيم شمس الدين
كاتب

"إن الذاكرة – خلافًا للتاريخ الرسمي- لا يمكن تزويرها أو العبث فيها، ولذلك فهي حينما تمجّد أو تتجاهل فإنها تعبّر تعبيرًا أمينًا صادقًا عن تفاعل تاريخي ناجح أو فاشل ربّما أصبح نسيًا منسيًا، ولكن آثاره ما تزال حيّة في الوجدان".

الوجدان المشحون بالعواطف قد لا يشكّل قيمة عند مزاولي النمط التقليدي لتسجيل الأحداث والتطورات الفكرية والسياسية، هذا النمط الذي يمكن أن نقول إنه صار تقليدًا باهتًا في ما نعيشه من انتكاس للفكر الحداثي الغربي في مجالات متعددة وبدرجات متفاوتة، ولكن في يومنا هذا صار الوعي تجاه العناصر المركبة والمعقدة لمجمل الوعي والعقلي والوجداني وغيرهما، من روافد تشكيل المشهد العام للبشرية في مراحلها الزمانية المختلفة. وحتى لا نخوض في نقاش أكاديمي جاف، نختصر ما نريد أن نبيّنه من أن قضية الوجدان الفردي والشعبي لا يمكن أن تسقط عن الاعتبار والقيمة في عالم اليوم، وليس التاريخ وتسجيله بخارج عن هذه الحقيقة. فلم يعد زماننا زمان "الوثائق الموثوقة والمسجّلة والمختومة!" لكتابة التاريخ، بل صار عنصر الوعي العاطفي والوجداني، الذي يمكن أن نطلق عليه اسم الذاكرة، أو "الرأسمال الرمزي" جزءًا لا يتجزأ من تركيبة المعرفة للواقع. من الأمور التي قد يصطدم بها العقل التقليدي في دراسة الأحداث أن الدولة التي تقوم على العمل المؤسساتي لا تعتني بالأشخاص إلا اعتناءً عابرًا، بمعنى أن المؤسسة إذا كانت هي المولّدة للسلطات وتداولها، فالواقع عندئذ يتم تسجيله بناء على عملها الرياضي الرقمي، ولا معنى للتعلق بالأشخاص في عمل المؤسسات، وبالتالي لا معنى لعنصر "الوجدان الشعبي العميق" في مجال العمل المؤسساتي، نعم، هذه العاطفة قرينة العمل غير المؤسساتي: نظير العاطفة المغلّفة تجاه ديكتاتوريي العصر الحديث، من صدام وغيره.

ولكن يبقى المحلل الأسير للنمط القديم في التحليل – الذي استعرضنا لمحة منه - أمام حيرة تركّب العنصر المؤسساتي مع الوجدان العاطفي في مثل ما نراه في إيران اليوم: رجل دولة، رحل في حادث مؤسف، وفي نفس اليوم أعلن قائدها أن الأمور لن تتضرر مهما جرى، ثم تقوم المؤسسات بوتيرة سريعة بتعيين القائم بالأعمال وتحدد في اليوم التالي قبل الدفن موعدًا لانتخابات جديدة، في عين هذا العمل المؤسساتي، تظهر العاطفة المتنقلة بين الشعب من شمال البلاد إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها، فكيف يُفسّر حضور المؤسسات بهذا الشكل الكبير مع تعلق العاطفة العميقة بالأشخاص؟

في الحقيقة، إن الإجابة عن هذا التساؤل تتطلب الكثير من التحليل واستخراج العناصر المكوّنة للبنية المؤسساتية والشعبية والقيادية للشعب الإيراني، ولكن المحتوم هو أنه وفق العقل الحداثي التقليدي لا يمكن تفسير هذه الظاهرة بأكثر من اختراع أوهام " العواطف المزيفة" أو "رهاب الديكاتورية الدينية"، ولكن في المقابل نجد أن الشعب الإيراني راكم رأسمال رمزيًا وذاكرة مشحونة جدًا بالعواطف تجاه الأشخاص، ابتداءً من السيد بهشتي ومرورًا بالحاج قاسم سليماني ووصولًا إلى السيد الشهيد رئيسي. هذه العاطفة عند التحليل تُظهر أنها عاطفة "المثُل" وعاطفة "الأيقونات" لشعب يدخل في صميم تكوينه البعد العرفاني. حتى إني سمعت أن بعض المزارعين جروا على عادة قراءة أشعار حافظ الشيرازي العرفانية عند حصادهم لمحاصيلهم، هذا التكوين المندمج في الشخصية الإيرانية يجعلها ميّالة إلى استخراج المثُل من الأشخاص، والكليات من الجزئيات، فبالحق نجد أن الشهيد سليماني اليوم أشبه ما يكون بمثال في عالم مثل هذا الشعب، والظاهر أن السيد رئيسي بشهادته انتقل إلى هذه المرحلة، والظاهر أيضًا أننا سنشهد تخليدًا له بحيث سيكون معيارًا لرؤساء لاحقين ومسؤولي البلاد القادمين.

طوفان الأقصى.. إحياء القضيّة

أحمد فؤاد
كاتب

في السابع من تشرين الأول/ أكتوبر الماضي، انطلقت واحدة من أقوى صرخات الرفض في التاريخ العربي. صرخة وجدانية جماعية هائلة حاولت أن تنقذ في الإنسان العربي والمسلم معنى الحياة بإعادة ضبط بوصلته إلى فلسطين. اليوم نستطيع أن نقول بكثير من الثقة والإيمان أن طوفان الأقصى كان ميلادًا وبعثًا للقلب العربي والروح العربية، وتصويب الخطى بعيدًا عن الأزمات المستوردة والقضايا المصطنعة والخلافات التافهة الملفقة. اليوم نستطيع أن نردّد بحماس وإصرار أن الاتّجاه إلى خيار البندقية كان في النهاية اكتشافًا لطريق يقين وكرامة وأمل، بعد فترة طويلة ساد فيها الإحباط والضياع والهوان.

السؤال الأول والواضح لعملية طوفان الأقصى هو: كيف كنا وماذا كان بأيدينا وما الذي وصلنا إليه اليوم؟ والإجابة أن المقاومة بمزيج من الفعل القادر والإيمان الذكي أعادت هندسة الواقع في منطقة الشرق الأوسط – على الأقل - بأن قدمت مفتاح "وحدة الساحات" كرد مباشر على عملية التطبيع العربي - الصهيوني الأضخم وما كان سيصاحبها من تهميش قضية فلسطين وإحالتها إلى دفاتر ذكريات التاريخ وشجونه الباردة. على المستوى العملي، فإن انخراط جبهات لبنان والعراق وسورية واليمن وإيران في العمل إلى جانب المقاومة الفلسطينية قد دفع الغرب إلى ضم صفوفه مع كيان العدوّ الهش، وبالتالي فقد نقل القضية برمتها إلى خانة القرع على الرؤوس وفي الضمائر، بقدر ما تطلبت المعركة جهدًا عسكريًا وسياسيًا أوسع، وضغطت على العصب الحساس في الغرب، وهو الشارع ورجل الشارع العادي والطالب، وبالاعتماد على وسائل شبه بدائية في التصوير والنقل والبث، تجاوزت كلّ منظومات الإعلام الأميركي الموجه والمعادي.

لم تنتقل قضية فلسطين إلى الغرب والعالم على صورة بكاء أو مظلومية تستدعي مشاعر الشفقة أو تستثير الدموع، لكنّها انتقلت على صورة ثورة ضدّ الظلم المعولم والجريمة المنهجية المنظمة. انتقلت كما في الصورة الأدبية الفذة لليوناني كازانتزاكيس "المسيح يُصلب من جديد"، وشرح التغريبة الفلسطينية للمرة الأولى منذ ١٩٤٨ باعتبارها صراع الإنسان منذ فجر التاريخ نحو العدالة كقيمة سامية، بما فيها من فهم ووعي بعقلية الآخر. رغم قتامة الصورة وبؤس الإمكانيات وتردي الأفعال وابتلاء بأشباه الرجال، فإن المأساة تتطلب من كلّ إنسان أن يتخّذ ولو بالضمير موقفًا، ومن الجميع أن يتضافر ابتغاء هزيمة قوى الشر المتمكّنة، وهذا ما خلق حالة اليقظة والانتباه للجامعات في أميركا وأوروبا وحراكها الحالي.

قبل يوم واحد من طوفان الأقصى، كانت كلّ الجهود الرسمية للنظم العربية برعاية أميركية تفرض حالة من التأويل والتشكيك والتمرير لواقع التطبيع الجديد، كانت المنطقة العربية تسير نصف نائمة إلى القبر، حيث تختار الإنتحار أو الدفن حية، فور إعلان الرياض عن اختراق الكيان للحلقة العربية حوله، بدا وكأن هناك قفز مجاني بعيدًا عن مسيرة التاريخ، ولم يبد أن هناك من هو قادر على منعه سوى بيانات الشجب والإدانة، لكن الفعل المذهل في طوفان الأقصى قد بلغ حدًا من الكمال إلى درجة مدهشة وعجائبية. في لحظات، انهار جدار غزّة وتبخرت الفرقة الصهيونية، وفي اليوم التالي تحطم "خط بارليف الجديد" في الشمال، وأُزيل من الوجود كلّ ما كان يمنع فكرة اجتياح شامل للجليل وشمال فلسطين، والعملاق المخيف الذي ظلّ الكيان يستنزف نفسه فيه كان عملاقًا بأقدام من قش ومن خيال فهوى، ويمكن مراجعة المواقع الصهيونية – لا المقاومة - في هذه النقطة تحديدًا.

بالنسبة للموقف الميداني في الجبهات، وبعد سبعة شهور ونيف من القتال، فإن المقاومة التي وضعت العدوّ - للمرة الأولى تاريخيًا - في خانة رد الفعل وقد فشلت المظلة الثلاثية من: الردع والحماية والتنبؤ في مجاراة المقاومة وسرعة تدفق الحوادث وسيولتها الشديدة في ميدان المعركة، إلى ممارسة العنف، العنف المجرد، وبقدر ما تطلب الصمود من تضحيات فقد قدم إلينا نتيجة ملموسة هو كشف مدى وعمق ضعف الكيان وهشاشته البالغة والكذب الفاضح الذي كانت ماكينات الدعاية العربية الغبية تمارسه بحق وعي الشعوب وإرادتها، وعند لجوء طرف بالغ الضخامة والقوّة إلى ممارسة العنف وحده كهدف واستراتيجية، فإن الأمر يستحق وقتًا للإستيعاب والدرس والفحص، قد تسمح الظرف أحيانًا باستمرار الأغبياء، لكنّها لن تسمح باستمرار كلّ هذا القدر من الحماقة والغطرسة والعناد معًا.

قلب معادلة طوفان الأقصى يمكن وصفه بما يعرف في أدبيات المقاومة بـ"التراكم"، وهو نتيجة التلاقح الخلّاق بين القوّة والوعي، بين الثقة والكفاءة. فالمقاومة هي خط صاعد على جبهة القدر منحوتة بالدم والعرق والآلام، كما عبّر عنها سماحة السيد حسن نصر الله: إن "المقاومة التي تقاتل اليوم على الجبهة هي نتيجة تراكمية للماضين والحاضرين والآتين في المستقبل"، هي ثمرة الغرس الطاهر، وفي الوقت ذاته، هي مصباح إمكانية التغيير أمام الآخرين، هي اليد المستعلية بالله التي تحطم صورة الكيان الذهنية، وتبدّد آثار قبضتها الثقيلة على الرقاب وفي القلوب، هي عاصفة إزالة وكشط قشرة الوهم الهائلة للعدو، التي غزلناها بأيدينا تبريرًا لمن فرطوا وهانوا، ومن المخجل في النهاية أننا ابتلعناها.

يوم الخميس ١٦ آيار/ مايو، وبالتحديد على جبهة الشرف في جنوب لبنان، جرى إسقاط إحدى أطول خدع التاريخ العربي عمرًا وأكثرها تكرارًا، ما اشتهر عربيًا بأنه "اليد الطولى" أو سلاح الجو الخارق للعدو، القادر على توجيه أي ضربة في أي مكان طالما شاء، من تونس إلى قلب القاهرة ومن قلعة دمشق العالية إلى حلم النووي العراقي، وحتّى في وجود قوى عالمية ثانية، لم يرد أحد بقصف جوي للعدو، لم تطاله الأيدي العربية بنفس أسلوبه قبل هذا اليوم، للمرة الأولى في تاريخ الصراع العربي - الصهيوني دوت كلّ أناشيد الفخر وآيات النصر مع عبارة "قصف جوي للمقاومة"، للمرة الأولى نعاين بالعين أن دماء ١٥ ألف طفل في غزّة صارت لعنة متحققة على العدوّ وهزيمة واقعة محتومة كالقدر.